شجرة عيد الميلاد

للكاتب الروسي : دستوفسكي

ترجمة : عبد المنعم جلال

شهدت اخيرا حفلة زواج ... او بالأحرى لا ... سوف احدثكم اولا عن شجرة عيد الميلاد فان حفلة الزواج التى شهدتها اخيرا كانت رائعة وقد اعجبتنى كثيرا ولكن الحفلة الاولى كانت اروع وامتع ، وسوف ترون لماذا اعادت هذه الحفلة الى ذهنى ذكرى شجرة عيد الميلاد .

كان ذلك منذ خمس سنوات تقريبا ... وقد دعيت الى حفلة اقيمت بمناسبة عيد الميلاد دعانى اليها رجل اعمال واسع الشهرة والثراء كثير الاحباب والصحاب بحيث ان تلك الحفلة التى أقاموها احتفالا بمولد طفل لم تكن غير سبب لاجتماع الاهل والاصحاب للتحدث والتشاور فى المواضيع التى تهمهم حتى يبدو أن الحديث قد جاء صدفة واتفاقا .

ولما كنت بعيد الصلة عن كل ما يمت بالاعمال فقد قضيت ليلتى فى معزل عن هذه المشاورات ورحت اشغل نفسى بالنظر الى المدعوين ومراقبتهم ولهذا لم البث ان لاحظت مدعوا آخر كان مثلى يبدو كأنه كان فى غير مكانه فى هذه الحفلة ... كان رجلا طويل القامة هزيل الجسم صارم القسمات انيق الملبس ، وكان يبدو بعيدا عن المرح والبهجة لانه ما كاد ينسحب الى احد الاركان حتى تلاشت ابتسامته من على شفتيه وقطب حاجبيه الغزيرين بطريقة تدعو الى القلق .

وكان يبدو من هيئته انه لا يعرف احدا بالقاعة فيما عدا المضيف وانه عزم على أن يقوم بدور الرجل السعيد على الرغم مما يحس به من ضجر .

وعلمت فيما بعد انه رجل ريفى دعته الى المدينة صفقة تجارية كبيرة . ولما كان يحمل رسالة توصية لمضيفنا فقد اضفى عليه هذا الاخير سترا من حمايته ودعاه لحضور حفلة عيد الميلاد مجاملة منه .

ولم يلعب المدعوون الورق ولم يقدم اليه احدهم سيجارا ولما لم يوجه اليه احد الحديث (ولعلهم عرفوا الطير من ريشه) فقد اضطر صاحبنا احتفاظا لوقاره الى ان يصقل فوديه ، وكان شكلهما جميلا حقا . وكان يفعل ذلك فى جد ومثابرة حتى ان المرء ليظن ان الفودين قد وجدا اولا وان السيد عين بعد ذلك للاشراف على صقلهما .

وفيما عدا ذلك الرجل الذى شارك بهذه الطريقة حفل مضيفنا صاحب الاطفال الخمسة تحول انتباهى الى سيد آخر .

كان ذلك السيد موظفا كبيرا اسمه جوليان مستاكوفيتش ، وقد لاحظت ان الجميع كانوا يعاملونه فى احترام كبير كما لو كانوا يعرفون انه ذا مكانة مرموقة وكان مضيفنا نفسه يعامله بنفس المودة التى يعامل بها السيد ذا الفودين .

وقد احاطه اصحاب البيت بكل مودة واكرام واعتنوا به عناية فائقة فقدموا اليه الشراب كما قدموه الى اغلب المدعوين ولاحظت ان مضيفنا تندت عيناه بدموع الفرح عندما ذكر جوليان مستاكوفيتش فى نهاية الحفلة بانه قط لم يستمتع فى حياته بوقت طيب كما استمتع فى تلك الليلة .

وينبغى أن اعترف بأننى احسست برهبة كبيرة عندما رايت نفسى وحدى مع ذلك الموظف المرموق . ولهذا ما ان ابديت اعجابى بالاطفال حتى انسحبت الى ركن من الصالون الصغير ولجأت خلف مجموعة من الاشجار اقيمت فى منتصف القاعة .

اما الاطفال فقد ضربوا عرض الحائط بنصائح مربياتهم وتوصياتهم وبدوا لى ظرفاء . وفى بضع دقائق نزعوا عن الشجرة كلها ما عليها من حلوى وفاكهة ثم تحولوا الى اللعب واجتهدوا فى تكسيرها حتى قبل أن يعرفوا لمن كل لعبة منها .

واقبل طفل صغير ذو شعر مصقول وعينين فائقتى الجمال فطاردنى حتى مخبئى وقد استقر منه العزم على ان يقتلنى ببندقيته الخشبية . اما التى نالت اهتمامى اكثر من غيره فهى اخته وتبلغ من العمر احدى عشرة سنة وكانت جميلة رائعة الجمال ، صامتة شاحبة ، ذات عينين واسعتين حالمتين . ولا ريب ان احد الصبية اهانها لانها لجأت الى الصالون الصغير الذى لجأت اليه وجلست فى ركن قصى منه لا يشغلها شىء غير عروستها وكنت قد سمعت بعضا من المدعوين يقولون ان اباها تاجر غنى وآخرين يقولون انه سوف يكون لها ثلاثمائة الف روبل مهرا . واذ كنت

انظر الى الجماعة التى يدور بينها هذا الحديث وقعت عيناى على جوليان مستاكوفيتش ، وكان واقفا عاقدا يديه خلف ظهره ومال راسه الى جانبه وراح يصغى الى ثرثرة الناس فى اهتمام شديد .

وفيما بعد ، لم يسعنى الا ان ابدى اعجابى بحكمة المضيف فيما يتعلق بتوزيع هدايا الاطفال فالطفلة ، صاحبة الثلاثمائة الف روبل منحت اجمل عروسة فى المجموعة كلها . وهكذا كانت اللعبة تقل قيمتها نظرا لدرجة واهمية اهل الطفل المالية . وكان آخر السعداء طفل فى العاشرة من عمره نحيف اشقر اللون يملأ وجهه النمش فقد منح كتابا صغيرا رخيصا يتكلم عن عظمة الطبيعة والدموع والحنان ولا تتضمن صفحاته صورة واحدة .

ولم يمض وقت طويل حتى علمت ان الطفل الصغير هو ابن مدرسة اطفال المضيف وهى ارمل مسكينة ليس لها غير هذا الطفل الاحمق الهلوع .

وكان يرتدى جلبابا عاديا من القطن الاصفر وعندما اخذ هديته راح يتسكع طويلا حول اللعب الاخرى ، وكانت عيناه تنطقان بالرغبة فى مشاركة الاطفال الآخرين لهوهم ومرحهم ولكنه لم يجرؤ على ذلك وهو يعرف بلا شك مركزه منهم .

وانا احب كثيرا ملاحظة الاولاد واجد اغرب ما فيهم هى البوادر الاولى ممارستهم حياتهم الحرة . وهكذا لاحظت ان الصبى الاشقر قد اخذه الحماس عند رؤيته بقية اللعب المقرر توزيعها على بقية الاولاد وعندما وقعت عيناه خاصة على المسرح اذ كان يريد أن يقوم بدور صغير اندمج مع اترابه من الاطفال فاعطى تفاحته لطفل سمين يمسك منديلا مملوءا بالحلوى ثم لم يرفض فيما بعد ان يكون مطية لاحد زملائه وكل ذلك حتى لا يبتعد عن جوار المسرح . ولكن على الرغم من كل ذلك لم يسلم من لكمات طفل اكبر منه ، وعلى الرغم من ذلك لم يجرؤ حتى على البكاء لان امه اقبلت فى هذه اللحظة ونهرته حتى لا يحول بين الاولاد وبين لهوهم . وبعد وقفة طويلة بالباب لحق بالطفلة الصغيرة . وكانت الطفلة طيبة القلب كريمة الخلق فلم تطرده وراح الاثنان يتعاونان فى حماس فى الباس العروس ثيابها .

كنت فى مكانى خلف الاشجار اشغل نفسى بالاستماع الى حديث الصبى والطفلة صاحبة الثلاثمائة الف روبل

عندما رأيت جوليان مستاكوفيتش يدخل فجاة . وقد انتهز هذا الاخير معركة دارت بين الاطفال فى الصالون الكبير فاسرع هو الآخر الى الصالون الصغير. وكنت قد رأيته قبل ذلك يتحدث طويلا مع المضيف ، وكان يبدو حالما وهو يعد على اصابعه قائلا :

ـ ثلاثمائة ... ثلاثمائة ... احدى عشرة سنة ... اثنى عشر ... ثلاثة عشر ... ستة عشر ، اى بعد خمس سنوات ... لنفرض ٤٪ ـ ٥×١٠ شهرا لنفرض أن هذه الثروة تصبح بعد خمس سنوات اربعمائة الف روبل ... نعم ... نعم ولكن هذا الوغد لا يقرض بفائدة ٤٪ طبعا ... لنقل خمسمائة الف روبل على أقل تقدير.

واذ فرغ من هذه العملية الحسابية وهم بمغادرة الغرفة وقعت عيناه فجاة على الطفلة . وكنت انا من غير شك مختفيا خلف الاشجار لانه لم يرنى . ولكنى رأيت الانفعال يبدو على محياه ... أكان ذلك نتيجة العملية الحسابية أو بسبب شىء آخر ... وفرك يديه فى ارتياح ونظر الى الخطيبة المقبلة نظرة اخرى زادت من ارتباكه وانفعاله.

وقبل أن يتقدم من المكان الذى جلس فيه الصبيان نظر حوله نظرة سريعة ثم تقدم على اطراف قدميه كما لو كان قد أحس انه مخطىء . واقترب جوليان مستاكوفيتش من الطفلين وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة وانحنى فطبع قبلة رقيقة على راس الطفلة .

ولم تكن هذه تتوقع مثل هذا المجرم المفاجىء فاطلقت صيحة تدل على الدهشة وقال هو :

ـ ماذا تفعلين هنا ايتها العزيزة الصغيرة .

وبسط يده وربت على خد الطفلة التى اجابته قائلة :

ـ اننا نلعب .

والقى جوليان مستاكوفيتش الى الصبى بنظرة بعيدة عن كل رقة وقال :

ـ معه ؟ .

ثم التفت الى الصبى وقال فى حدة.

ـ ينبغى أن تذهب الى الصالون الآخر يا صغيرى .

واذ رأى الصبى واقفا لا يريم ولا يحول بصره عنه دار بعينيه فى انحاء الغرفة فاحصا ثم انحنى فوق الطفلة وقال :

ـ أهذه التى معك عروسة ياعزيزتى الصغيرة ؟ .

فاجابته الطفلة وقد ظهر عليها الارتباك ...

ـ نعم . عروسة .

ـ وهل تعرفين يا عزيزتى الصغيرة مم صنعت ؟

ـ فقالت وهى مطرقة براسها : ـ لا . لا أعرف .

ـ من الحرير يا عزيزتى الصغيرة .

ونظر جوليان مستاكوفيتش الى الصبى نظرة صارمة وقال له .

ـ ينبغى أن تذهب لتلعب مع زملائك.

ولكن الصبى لم يشأ أن يبتعد عن صاحبته بل ازداد دنوا منها حتى كادا يتلاصقان وتحول جوليان مستاكوفيتش الى الطفلة وسألها .

ـ وهل تعلمين لماذا قدموا اليك هذه العروسة ؟ .

ـ كلا .

ـ ذلك لانك طفلة رقيقة ... لطيفة.

ونطق الموظف الكبير بهذه الكلمات وهو لا يستطيع أن يخفى انفعاله ونظر حوله متوجسا ثم خافت بصوته الذى ازداد اضطرابا وقال :

ـ هل تحبيننى يا عزيزتى الصغيرة اذا انا ذهبت لزيارة أبويك ؟ وأراد جوليان مستاكوفيتش ان يقبل الطفلة مرة اخرى ولكن الصبى عندما رأى ذلك أجهش بالبكاء وشدها من ذراعها وراح ينتحب كما لو كان مشفقا عليها ...

واصطبغ وجه جوليان مستاكوفيتش بحمرة الغضب وصاح مجنقا :

ـ اخرج من هنا ايها الشقى ... اذهب والعب مع زملائك .

ولكن الطفلة صاحت من خلال دموعها

ـ لا ... لا ينبغى أن يذهب ... بل اذهب انت ... دعه ... دعه وشأنه .

وصدرت بالباب حركة جعلت جوليان مستاكوفيتش ينتفض ويعتدل على الفور . وكان خوف الصبى أشد وهو يحاول بلوغ الباب وهو يتسلل فى هدوء ويتمسح بالجدار ورأى الموظف الكبير أن يغادر الصالون هو الآخر منعا للشبهات، وكان لونه شديد الاحمرار. ونظر الى صورته فى المرآة وهو يجتاز الغرفة وبدا عليه الارتباك . هل أحس بالخجل لتسرعه ؟ ... لعل الحسبة التى قام بها على أصابعه قد أغرته وجعلته يتصرف تصرف الاطفال محاولا الدنو من موضوع أحلامه الذى لا يمكن أن يصبح حقيقة الا بعد خمس سنوات.

وتبعت الموظف حتى صالة الطعام حيث رأيت منظرا عجيبا . فان جوليان مستاكوفيتش ، وقد زاد احمرار وجهه لفرط غضبه راح يحاول افزاع الصبى الذى لم يعد يعرف أين يذهب .

ـ ماذا تفعل هنا أيها الشقى ؟... اذهب ، اذهب أيها الوغد . انك تسرق الفاكهة... اخرج ... اغرب عن وجهى أيها المجرم ... قلت لك اذهب .

واقدم الصبى المذعور على عمل يائس فاختبأ تحت المائدة ولكن الموظف أخرج منديله من جيبه وراح يهزه تحت المائدة وهو يحاول أن يصل الى الصبى .

وهنا ينبغى أن نلاحظ أن جوليان مستاكوفيتش كان رجلا قوى البنية

احمر الوجه قصير القامة ذا كرش مستدير قائم على فخذين سمينين .

وتفصد وجهه بالعرق وكاد يختنق وهو يتحرك ويكثر من التحرك بدون نتيجة واخيرا اخذه الحنق واستولى عليه الغضب ، ومن يدرى ، لعله كان شعورا بالغيرة .

ولم أملك نفسى فأطلقت ضحكة كبيرة واعتدل جوليان مستاكوفيتش عندئذ ونظر الى فى ارتباك ظاهر ونسى وقاره وزاد الطين بلة أن ظهر مضيفنا بالباب. وخرج الصبى من تحت المائدة وراح ينظف ركبتيه. أما جوليان مستاكوفيتش فقد سارع برفع منديله الى انفه ليخفى انفعاله .

ودهش المضيف عندما وقع بصره علينا ونحن فى هذا الموقف الغريب وبدا عليه الانزعاج ولكنه كرب بيت عليم بأمور الحياة انتهز على الفور هذه الفرصة التى تقربه من الموظف وقال وهو يشير الى الصبى الاشقر .

ـ هذا هو الصبى الصغير الذى حدثتك عنه .

فقال جوليان مستاكوفيتش ، ولم يكن قد تغلب على انفعاله بعد .

ـ آه ... آه ...

واستطرد المضيف فى التماس : ـ انه ابن المدرسة التى تشرف على تعليم اولادى وهى ارملة مسكينة مات زوجها وليس لها معين . وهذا هو السبب ياجوليان مستاكوفيتش فاذا كان فى مقدورك ....

فقاطعه الرجل القصير البادن على الفور وقال : ـ آه كلا ... كلا ... معذرة يا فيليب الكسيافيتش... هذا غير ممكن ... لقد استعملت عنه وليس هناك مكان ما ... وعلى فرض أن هناك مكانا فهناك ايضا عشرة مرشحين احق منه ... آسف ... آسف جدا .

فقال المضيف : هذا شىء يؤسف له ... انه صبى ظريف صموت ومطيع.

فقال جوليان مستاكوفيتش وقد زم ما بين شفتيه :

ـ بل شقى صغير ... اذهب ... اما زلت واقفا... اذهب الى زملائك.

ولم يستطع ذلك الموظف الكبير المرموق أن يتمالك نفسه فأرسل الى نظرة قلقة . اما انا فقد رايت أن من المستحيل ان ابدو بمظهر غير المكترث فارسلت ضحكة كبيرة وانا احدق فى الموظف الذى تحول الى المضيف ليساله طبعا عمن اكون ...

وتمتم المضيف ببضع كلمات ثم انصرف الرجلان .

وعدت بدورى الى الصالون . كان الرجل الثرى واقفا فى حلقة من المضيف والمدعوين يتحدثون جميعهم الى سيدة امسكت فى يدها بيد الطفلة الصغيرة التى وقع معها ما تقدم ذكره مع الموظف.

وكان الموظف المرموق نفسه واقفا

يمتدح جمال الصبية ويطرى أخلاقها وتربيتها العالية وراحت الام تصغى الى كلماته والدموع تكاد تطفر من عينيها ورايت ايضا ان شفتى الاب اختلجتا فى ابتسامة حافلة بالانفعال بينما لم يستطع المضيف ان يخفى السرور الذى سببته له هذه الكلمات . وانضم المدعوون انفسهم الى الحديث وانقطع الاطفال عن اللعب حتى يصفو الجو للحديث .

وسمعت الام توجه الدعوة فى انفعال الى الرجل الثرى وترجوه أن يشرف بيتهم بصداقته الغالية . وقبل الثرى الدعوة وكذلك قبلها جوليان مستاكوفيتش وهو لا يتمالك نفسه من الانفعال .. وراح الجميع يمتدحون المضيف وزوجته والتاجر الثرى والام وابنتها الصغيرة وخاصة جوليان مستاكوفيتش .

والتفت انا الى أحد المدعوين وقلت اسأله .

ـ هل هذا الرجل متزوج ؟

وسمع الرجل البدين سؤالى فرشقنى بنظرة قاتلة واجابنى جارى فى استياء وقد اعتبر سؤالى مفرضا وفى غير موضعه .

ـ كلا .

ومنذ أيام كنت مارا أمام الكنيسة عندما لفت نظرى جمع غفير من الناس وحشد من العربات وسمعتهم يتحدثون عن زواج وشيك الوقوع . كان اليوم كئيبا والثلج يتساقط رذاذا ودفعنى الفضول فدخلت الى المحراب واخذت ابحث عن الزوج فرايته رجلا قصيرا ممتلىء الجسم بارز الكرش يحمل على صدره عدة نياشين وكان يجرى فى انفعال يصدر الاوامر هنا وهناك . واخيرا سمعت همسا بين الحاضرين ادركت منه أن العروس قد اقبلت .

وتدافعت بالمناكب حتى بلغت الصف الاول ووقعت عيناى على فتاة فائقة الجمال فى فجر ربيعها . وكانت شاحبة، حزينة تنقل عينيها بين جموع الحاضرين، وقد خيل الى أن هاتين العينين قد اضطرمتا من فرط البكاء. وكانت نقية الملامح ذات مهابة ووقار ولكن كان يتخلل هذا الوقار وتلك المهابة شىء صبيانى ساذج كان يبدو كما لو كان يسأل الموجودين الرحمة .

وايقظت هذه النظرة فى نفسى ذكريات مبهمة . ودققت النظر الى الخطيب وما كدت افعل حتى عرفت فيه فجأة ذلك الشهم جوليان مستاكوفيتش ، وكنت لم اره منذ خمس سنوات وعدت انظر الى الفتاة من جديد و ... يا الهى ... ومن غير أن أحاول رؤية المزيد اسرعت الى الباب تلاحقنى كلمات المدعوين .

ـ ان العروس تملك مهرا قدره خمسمائة الف روبل .

وعندما خرجت الى الشارع تمتمت اقول :

اذن فقد كان حسابه مضبوطا .